"الأثر الفني الإبداعي وأبعاده في مطابقة الأنا الآخر"

ديوان سحر العيون لمحمد كنتاوي أنموذجا

تاريخ استلام المقال: 2017/04/18 تاريخ قبول المقال للنشر 2017/12/25

د.سعاد شابي

أستاذة محاضرة أ

قسم اللغة والأدب العربي جامعة أدرار

الملخص:

موضوع الأنا والآخر من الموضوعات التي اهتم بها الدارسون في جانب الدراسات الحداثية، والظاهرة ليست مقصورة على جنس بعينه بل في الشعر والرواية وغيرها من الفنون الأدبية، وموضوع المطابقة بين الأنا والآخر أثار انتباهي في ديوان سحر العيون للشاعر محمد كنتاوي، لذلك اخترت أن يكون موضوع هذه الدراسة:" **الأثر الفني الإبداعي وأبعاده في مطابقة الأنا الآخر**"

Abstract :

The theme of the ego and the other is not limited to particular genres, but in poetry and novel in general. Again, the theme of the matching between the ego and the other has caught my attention in the poetry of Magic of the Eyes (*sehr al ayoun*).

مقدمة:

سمعت في البداية عن ديوان "**سحر العيون**" في أروقة الجامعة ولا أنكر أني لم ألقِ لذلك الأمر بالًا ولم أهتمّ في بداية الأمر، فالإبداع الأدبي ما انفك يتتالى كل يوم وكل وقت منذ فجره إلى يومنا؛ لكن ما استوقفني وأثار حفيظتي وفضولي هو سماعي لاسم صاحب الديوان: **محمد كنتاوي**، ليس الأمر متعلقا بشخصه من حيث هو ولكن لأسباب عدّة أذكر منها: تخصص الشاعر في علوم اللغة وبخاصة ما تعلق بالنحو والصرف، وقد شاع بين عامتنا أن

المنشغلين باللغة يبتعدون غالبا عن الإبداع في الأدب وفنونه، وهذا العرف قد فنده محمد كنتاوي الذي دخل إلى عالم الأدب منذ وقت بعيد عكس معرفتي به.

كان ذلك كافيا لأطلب النسخة وأتصفحها من البدايات إلى النهايات، وقد انتبهت إلى أمر متميّز جدا يكاد لا يخفى على القراء جميعا، ذلك أن الذي يعرف الشاعر عن قرب سيقف حائرًا – لا محالة– بين شخصين مختلفين جدا؛ فالأول (الشاعر خارج النص) والآخر (هو داخل النص) أو حبذا لو نشير إليه (البطل)، وقد كانت هذه القضية الأساس في اختياري لموضوع الدراسة الموسومة:

"**الأثر الفني الإبداعي وأبعاده في مطابقة الأنا للآخر**"

وتساؤلات كثيرة تتزاحم في الواقع قبل أن أباشر النظر في الإشكال الذي أريد طرحه بإلحاح، تكون في مضمونها الإطار الأدبي لهذا البحث، أبرزها:

- أين مواطن التشابك بين الأنا والآخر في سحر العيون؟
- لمَ كان الشاعر يلجأ الى ذلك وما أبعاد هذا التشابك؟

وتساؤلات أخرى لا حصر لها تتوارد في مخيلتي لكن المقام لا يتسع لسردها أو الإحاطة بها وربما أتركها لدارسين آخرين، وسأسعى للنظر في بعضها في ما يأتي من مراحل البحث.

أولا: الشاعر من خلال كتابه:

محمد كنتاوي أو (حماده) كما يرد اسمه في الديوان[1]، من مواليد التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ثمان وسبعين وتسعمائة وألف للميلاد (1978م)، وعلى حد علمي هذا التاريخ يتوافق مع وفاة أحد أبرز زعماء البلاد

[1]– التسمية الكاملة لهذا الديوان: سحر العيون (جرعات متتالية متزايدة) وهو من خمسة أجزاء آثر الشاعر الخروج فيها عن العادة والتقاليد الكتابية فبدل أن يشير بالأجزاء نجده يشير: الأسفار التي مفردها : سِفْر.

(الرئيس الراحل الهواري بومدين)، فاكتشفت حين بحثي عن الشاعر انه تميز منذ الولادة، كان مسقط رأسه في إحدى قرى رقان وأكبرها من حيث المساحة وعددُ السكان، إنها "تيمادنين" المعروفة بالعربية (المعي الغليظ) وهي إحدى أغرق المناطق التواتية قدما الى جانب تمنطيط وتماسخت، دخل الكُتّاب منذ الثالثة من عمره وقد ابهر شيخه في ذلك العمر لأنه يتميز الى اليوم بذاكرة بصرية حادة، بحيث يحفظ كل ما تقع عليه عيناه من رسوم أو خطوط أو ألوان أو أشخاص، كان لذلك أثر ظاهر للمعلمين في الابتدائية (ملحقة البشير الإبراهيمي)، لأنه تفوق في الإعراب من قبل أن يدرسه وهو في قسم السنة الثالثة من التعليم، هذا يعني أنه تمرّس على العربية مبكرًا، ألا يمكن أن يكون ذلك سببا آخر ليجعله في مصاف المبدعين العمالقة؟.

إن الشاعر في نظر الناشر (شوقي ريغي)[1] هو أحد المجددين لهذا العصر وكذلك في نظر كاتب التقديم لسحر العيون (فيلالي عراس)[2]، وهذا ما كنت سأقوله بعد أن طالعت السحر، إنه عصر جديد سيبدأ بسحر العيون، وقد أشار هو بنفسه إلى ذلك في الجرعة الثالثة عشر[3] :

سأعلن مقدم عصر جديد

محابره من دموعي

---

[1]– صاحب دار النشر "منشورات فاصلة" وهو كذلك صاحب أعمال أدبية أشهرها: الشمس والشمعدان، الدوران، ورواية التميمة وغيرها.

[2]– فيلالي عراس أحد الباحثين المهتمين بالبلاغة والنقد في الجزائر وأستاذ محاضر في التخصص في جامعة قسنطينة، صاحب كتاب: مسارات النقد العربي القديم، وديوان: أهواك عنوانا لكل قصائدي.

[3]– سحر العيون: محمد كنتاوي، منشورات فاصلة للنشر والتوزيع، ط1، 2016م، ص 129.

وأقلامه من عظام

حصل الشاعر على شهادة الليسانس عام 2001م من كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، وكتب خلال هذه الفترة السفر الأول من سحر العيون ثم روايته الأولى (أيام من الشوق)، كما تحصل على الماجستير عام 2009 وبعدها الدكتوراه عام 2015، عمل في الطور الابتدائي قبل أن يلتحق بالجامعة، لمدة خمس سنوات وكان قبلها قد التحق بصفوف الجيش الوطني الشعبي لتأدية الواجب الوطني، وكتب خلال تلك الفترة مذكراته (أيام العسكرية)، وانقطع حينها عن كتابة الشعر، فهو على حسب معرفتي لم يكتب في غير المرأة وقد صرح في تقديمه بهذا الأمر وقال: «.. **مضى وقت طويل .. في آخر مرة كتبت فيها شعرا.. أو كلاما يشبه الشعر.. أيام العسكرية.. تلك الأيام.. كانت الكتابة في الشعر آخر ما أفكر فيه.. بل كنت أرفض الكتابة.. ذلك لأني كلما عزمت عليها أجدني أكتب عن الحب والغرام والمأساة التي يجلبانها.. وهو سبب هجري للشعر...**»[1].

في السنة الخامسة عشر بعد الألفين (**2015م**) انفجر الشاعر من جديد وعاد بالسفر الثاني وقد كتبه كاملا في قسنطينة إلا بعض الفصول كانت في بلده رقان، وهذا يظهر جليا لأنه كان يسجل دائما الحال والوقت بعد كل نصوصه، وأردف الى ما سبق الأسفار الأخرى[2].

يعمل الشاعر الآن محاضر لمقياس النحو العربي في جامعة العقيد احمد دراية بأدرار، الواقعة في أقصى الجنوب الغربي من الجمهورية الجزائرية، بعد أن قضى سنوات ثلاث في قسنطينة (سيرتا) كما يشير إليها. ويظهر حبه

[1]– سحر العيون، ص21.

[2]– لم ينشر الشاعر كل المنتوجات منذ وقتها وتركها إلى اليوم لحاجة في نفسه.

لها كثيرا بل عميقا جدا بحيث تراه يصفها ويبكيها ويتغنى بها خاصة في السفر الثالث لكنه ليس متاحا لدينا هذه الآونة لذلك تتعذر الإشارة بمقاطع منه.

ثانيا: قراءة تعريفية لديوان سحر العيون "السفر الثاني":

تتألف سحر العيون كاملة من مجموعة كبيرة متفاوتة من الجرعات كما يشتهي الشاعر تسميتها، وقد كان تصنيفها للنصوص بصورة فنية متناهية في الإبداع بحيث جعل الجرعات على بحر خاص بها وهو بحر خاص به كذلك؛ إنه المتقارب الذي مفتاحه:

عن المتقارب قال الخليل

فعولن فعولن فعولن فعولن

وسمى ما خرج عن المتقارب هامشا، وما خالف ذلك منعطفا[1] ومنعطفا ثانيا ومنعطفا آخر وأحيانا منعطفا حادا وهكذا تعدد المصطلحات لديه وهو أمر جديد لم يُعرف لدى الشعراء من قبلُ؛ فهي مصطلحات فنية أدبية متجددة لديه بكل المعاني.

[1]- اختار الشاعر كلمة منعطف لسببين هما:

– المنعطف في السير يتطلب انتباها مضاعفا حتى لا نصطدم بما لا نراه وحتى نتجنب الوقوع أو الألم

– كان المتقارب بحرا مناسبا لتقديم الجرعات بانتظام ذلك ما يجعل المشاعر منتظمة متناغمة تماما مثل التفعيلات (فعولن فعولن فعولن فعولن) وبالخروج عن المتقارب يكون الشاعر قد أخذ منعطفا فعليا في أحاسيسه وشعوراته وأحيانا كان ذلك بصور عنيفة وهذا ما جعله كذلك يخرج عن المتقارب للطويل أو الكامل أو الوافر أو البسيط أو الخفيف وليس هذا فحسب بل إنه كان يسمي أحيانا : منعطف حاد مثل ما حصل في بحر النصوص في السفر الثاني، وإذا طالعنا القصيدة سنعرف كيف تضمنت عنفوانا لم نعهده في كل النصوص السابقة عليه سواء كان جرعة أو منعطفا أو هامشا لذلك كان حادًّا.

وهي في حقيقتها خلاصة قصص حب موجعة جدا عاشها الشاعر في ما يسميه: أجمل الأوقات.

ليس ذلك فحسب بل كان ملتزما بوضع مقطع على هامش الصفحة السفلي: "لأنك كنتِ أنا كنتُ أنتِ...."

حتى هذه العبارة قد اختارها بعناية واضحة للقارئ وهذا دليل على خبرة الشاعر باللغة العربية، والأمر ليس غريبا لأنه أستاذ النحو والصرف ومن أهل التخصص، وكان علمه باللغة من بين العوامل التي جعلته يحسن التمثيل والتصوير بالكلمات.

ثالثا: ظاهرة الأنا والآخر في سحر العيون:

قبل التطرق للأنا والآخر في ديوان سحر العيون لابد من التعرف على مفهومي الأنا والآخر فقد تعددت تعريفاتهما حسب نظرة كل تخصص (الفلسفة، علم النفس....)، ولكننا أخذنا بما يخدم موضوعنا من تعريفات اصطلاحية أقرب للغوية، فالأنا: "ضمير متكلم قائم بذاته ولذاته، لا ينازعه أو يشاركه في ذاتيته وبصفته آخر، فهو مستقل عن غيره وإن كان منتجا له وناتجا عن علاقته به"[1]

والآخر: " في تاريخ الفكر، كما في العلوم الإنسانية، احتلت موضوعات الآخر_وما تزال_مكانة بارزة نظرا لارتباطها الجدلي بموضوعات أساسية ملازمة: الأنا/ الذات– الهوية... فيصير الآخر بالمفرد والجمع الذي تعيش معه تجارب كالقرابة والصداقة والجوار، أو كالمنافسة والخصومة والعداء...وهذه

[1]– التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر: أحمد ياسين سليماني، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2009م، ص 404.

التجارب وسواها تحدد بنوعها واختلافها طبيعة العلاقات ودرجتها إما على صعيد الوعي أو في حقل السلوك والفعل"[1].

وبالتالي فإن الأنا تدل على الذات، وأما الآخر فيدل على من تتحدث عنه الأنا حسب العلاقة التي تربطه بها حسنة أو سيئة، والآخر قد يكون إنسانا أو شيئا جامدا، وقد يكون مفردا أو جمعا.

يظهر جليا لمن يتعرف على الشاعر عن قرب أنه يكنّ احتراما كبيرا لعادات بلده وأكثر منها مكانة عائلته وخصوصياتها، فقبيلة (كنته) معروفة بالعلم والدين ومشايخها منذ زمن بعيد وهي قبيلة عربية إفريقية غنية عن التعريف، لذلك كان الشاعر يختفي متعمدا عن الأضواء حفظا لتلك الصورة المهابة، هذا بحسب ظنّي والله أعلم.

أدى ذلك الحرص منه على التخفّي إلى خلق شخصية أخرى يتحدث عنها ويصفها ويخبرها أحيانا ويتقمصها أحيانا أخرى، فنجده **(هو من حيث هو)**.

وفيما يأتي سأفصل كل المشاهد التي رأيت فيها تطابقا بين أنا الشاعر والآخر الذي هو الشاعر نفسه كما أراد أن يكون بالنظر إلى العوامل التي أشرت لها وكذلك بالنظر إلى كونه البطل الواقعي في قصة السحر، فهو يجسد بالآخر قصصه في عشقه التي مر بها منذ زمن، فالشاعر ههنا نقل تجربته الذاتية ورؤيته الإنسانية لمعنى الحب، لمعنى اللذة والألم في الحب، وطبعا البحر من المتقارب المناسب لإفراغ آلامه وبسط أفكاره.

[1]– في معرفة الآخر: بن سالم حميش، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط2، 2003م، ص 05.

مطابقة الأنا (الشخص المتحدث أو المرسل) والآخر (وهو المتلقي أو المرسل إليه):

1- أول نص نثري بدأ به الكاتب حيث يقول[1]:

«مضى وقت طويل .. في آخر مرة كتبت فيها شعرا.....».

إلى قوله:

« حبيبتنا في انتظار القرين..

تنادي تقول: أحبك"...».

هناك دلائل على المطابقة بين الأنا والآخر في:

- **الحب يترعرع في أقرب قلب بعيد .. والعيون تتلذذ بالنظر إلى أحلى وجود غير موجود. ..»[2].**

هناك تطابق بين البعد والقرب من حيث هناك قلب واحد بحسب إشارة النص، كما هناك تطابق بين الوجود وغير الموجود، فالحب والشوق للمحبوبة وإن كانت بعيدة وإن كانت غير موجودة أمام العيون، فبعدها وقربها واحد ووجودها وغير وجودها أمامه واحد، والدليل قوله:" عرفت أن الحب لا يعرف الزمان ولا يحكمه المكان.."[3]، فقلب المحبين واحد.

- أما المناجاة فهي لا تكون إلا لأحدٍ يسكن في ذاتنا، أي هو في أعمق مكان منا في هذا المستوى من الحب يصير هناك اتحاد بين الطرفين وهو أعلى درجات الحب.

لما قال:

---

[1]- سحر العيون، ص 21.

[2]- الموضع السابق.

[3]- سحر العيون، السفر الثاني، ص 20.

- **" ما معنى أن أستنشق النسيم في مكان لا تستنشقي النسيم فيه معي..؟ »[1].**

فهو يطلب ويلتمس الاتحاد باعتبار أن النسيم أو الاكسجين واستنشاقه عمل خاص جدا يمارسه كل فرد بمفرده، وقد استجابت المحبوبة لطلبه واتحد استنشاقهما للهواء، في المكان نفسه

2- في الجرعة الأولى:

- يقول:

" أحبك كما كنت في الذكريات وفي المقبلات..

وكل الزفير وكل الشهيق

(.....)

.. تأمل تراك.. فلست تراك !!

لأنك سر لديّ ..

أداريه عني،

عن الناس حولي عن العالمين،..."[2]

هذا ما قاله الشاعر (الأنا)

وتجيب المحبوبة (الآخر):

" حبيبي حمادة..حمادة حبيبي..

خلقت لحبي

وحبك لي ملك وحدي

---

[1]-. المصدر نفسه، ص 22

[2]- المصدر نفسه، ص 25-26.

ولحظُك لي، مثلما نبض قلبك

لي ..

مثل عمرك لي.."[1]

ألا ترى بأن هذا أمر مستحيل فهي تخاطبه باللغة نفسها وتقول أنها تمتلك نبض قلبه كذلك، فالحب واحد بينهما، يمتلكان قلبيْ بعضهما، فقلبها يحوي نبض قلبه.

3- الجرعة الثالثة:

- يقول الشاعر:

" وإني سجين

وراء الحروف التي توسمين

بها والسطور

فاسمك أحرفه منتقاة..

وأصواته،

تنوح،

تبوح بسر الغرام"[2]

كذلك الاسم الواحد علامة على الاتحاد، رهين اسم محبوبته التي يعني بأحرفه وأصواته كل معاني الحب، فالحب الذي يأسره واسمها واحد.

- و يقول:

" واسمك اسمي من الشين للياء والميم والمد ذاك

الشموخ

---

[1]- المصدر نفسه، ص 26.

[2]- المصدر نفسه، ص 32.

أراه مبين،..

وهمزة اسمك همزة وصال: أحبك"[1]

الاتحاد في الاسم فاسمها اسمه، ثم يعدد الحروف في صورة لغز ليخفي اسم حبيبته.

4- **الجرعة الثالثة:** الاتحاد بين الأنا والآخر

تقول المحبوبة:

" أنا لست نصفك أو بعض روحك، بل، أنت أنت

وأنت أنا في مكان بديل

أحبك

أرد على قولها فأقول:

أحبك عمري الحبيب

أحبك أكثر من حب حبي

وحبِك حبي.."[2]

(أنت أنا)- (أحبك عمري)- (حب حبي وحبِك حبي)، كلها توحي بتطابق بين ذات الشاعر وذات المحبوبة، فهما واحد.

- تواتر هذه الجملة : "لأنكِ كنتِ أنا كنتُ أنتِ ..." في آخر كل صفحة، هذه الجملة وردت في المقاطع أيضا من الصفحات 35 و 36، فهو وهي واحد: ذات واحدة.

5- الجرعة الرابعة :

- يقول الشاعر:

---

[1]- المصدر نفسه، ص 33.

[2]- المصدر نفسه، ص 35.

" وقبرك قبري

إذا متِ قبلي،"[1]

فحتى موته مرهون بموتها، وقبرهما واحد.

6- الجرعة الخامسة:

- يقول الشاعر:

" ولي قلبها

وهذا لأني بقلبي لها"[2]

الاتحاد في القلب، فقلبها له وقلبه لها وكأنهما ذات واحدة في شخص واحد. يقول: ولي قلبها وهذا لأني بقلبي لها ... الخ

- يقول:

" واعرف أنك حيث تكوني أكون "

وقوله:" فأنت بحق: أنا في مكان بديل"[3]

فحيث تكون يكون هو، ثم يؤكد: فأنت أنا، إذن فالشاعر يجعل حبيبته نفسه هو.

7- الجرعة السادسة:

- يقول:

" صحيفتنا سطرت قبلنا"[4]

إن فحتى الصحيفة واحدة، أي قدرهما واحد فهما بمثابة الواحد.

- يقول:

---

[1]- المصدر نفسه، ص 40.

[2]- المصدر نفسه، ص 47.

[3]- المصدر نفسه، ص 48.

[4]- المصدر نفسه، ص 52.

" سأشكوكِ لي حيثما ألتقينِ"[1]

- ويقول:

" يجعل بالبين بيني وبينك، آآآآآآآهٍ يشتتنا

فيترك بعضك بعضي"[2]

فإن كانا هما واحدًا، فحتى أجزاؤهما أو أبعاضهما واحدة.

- يقول:

" أموت لتحيا

وأنت، تموت لأحيا.."[3]

فموتهما لحياتهما واحدة.

8- الجرعة السابعة:

- يقول:

" أشاطرك الداء، كل العذابات والهم والغم والسقم

والدم والجهد والنفس والقلب والقبر والـ..كل ما

أستطيع"[4]

فهنا يشاطر الأنا الآخر الداء، لأنها جزء منه فداؤهما واحد.

- يقول:

" تعالي أراك ...فلست أراك..

لأنك سر لدي"[5]

---

[1]- المصدر نفسه، ص 53.

[2]- المصدر نفسه، ص 54.

[3]- المصدر نفسه، ص 55.

[4]- المصدر نفسه، ص 63.

[5]- المصدر نفسه، ص 63.

حيث يتقاسم الشخص أسراره مع نفسه حينما يرى أن المخاطَب جزءا منه، وهذا ما فعله الشاعر (الأنا) مع محبوبته (الآخر).

- يقول:

" سأنسى تقاسيم وجهي لأني

من فرط حبي لوجهك أصبح وجهك وجهي"[1]

ويقول:

" إليك سأرحل عني.. إليك"[2]

هما بمثابة الذات الواحدة، فكأنه يتحدث عن نفسه فقط لكونه جاعل الآخر جزء منه بل هو.

9- الجرعة العشرون :

- يقول:

"ولكن.. نسيت

تماما بأني بقلبين أحيا

بنصفين عانيت سطو الهوى والهوان"[3]

يقر الشاعر (الأنا) بأن محبوبته (الآخر) نصفه، فهي القلب الثاني الذي يعيش به.

خاتمة:

خلاصة لما قدمناه فإن هذه الدراسة التي ارتكزت على موضوع محدد وهو مطابقة الأنا للآخر، ف:

---

[1]- المصدر نفسه، ص 74.

[2]- المصدر نفسه، ص 77.

[3]- المصدر نفسه، ص 196.

- الأنا عند الشاعر: هو نفسه الشاعر، الأنا متألمة، استطاع الشاعر بكل إبداع أن يفصح عن حبه وشغفه وحنينه لمحبوبة الماضي، لأن هذا إنما استذكار لما كان، وهذا فعلا ما سبب له ألما.
- الآخر: هي حبيبته التي قاسمته الحب في الماضي.
- أما عن المطابقة بين الأنا والآخر: فالشاعر وبعد قراءتنا لديوانه لم يكن نرجسيا، فلم يكن محبا ومظهرا لذاته بل كان همه محبوبته (الآخر) لدرجة انصهار الآخر في الأنا فتشكل فيضا من الأحاسيس التي تأسر الأنا اتجاه الآخر.
- الأنا المحبة متألمة حزينة لعدم ظفرها بالآخر المحبوبة التي كانت تبادله نفس الحب.
- الأنا المحبة جعل الآخر جزءا منه تارة، وجعلها ذاته تارة أخرى، فالشاعر يخاطب حبيبته وكأن الآخر هو الأنا، فالآخر سلبه الأنا ولم تترك فيه شيئا منها، بتصوير فني رائع، وهذا إنما تمكن الشاعر من مفردات وتعابير اللغة العربية ومعانيها، وإنما كل هذه الحروف نابعة من قلب صادق محب.
- مناجاة الأنا للآخر لم تكن بلغة مفضوحة حتى لا يتعرف عليها من طرف الناس، فتبقى سر لا يدركه إلا الأنا والآخر، أي الشاعر وحبيبته، وهذا بتقمص الأنا للآخر.

المراجع:

1- التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر المعاصر: أحمد ياسين سليماني، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2009م.

2- في معرفة الآخر: بن سالم حميش، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط2، 2003م

3- سحر العيون: محمد كنتاوي، منشورات فاصلة للنشر والتوزيع، ط1، 2016م.